

من دفائن رسائل الجاحظ

Encore des Epistoles de Djâhizh.

رسالة في اثبات امامة امير المؤمنين
علي بن ابي طالب عليه السلام
للجاحظ

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من امتزل الشك ، والظن ، والدعوى ، والاهواء ، واخذ
باليقين والثقة من طاعة الله ، وطاعة رسوله ، صلعم ، واجماع الامة بعد نبينا عليه
السلام ، مما تضمنه الكتاب والسنة ، وترك القول بالاراء ، فانها تخطى
وتصيب . لان الامة اجمعت ان النبي صلى الله عليه وآله ، شاور اصحابه في
الاسرى بيد ، واتفق رأيهم على قبول الفداء منهم ، فانزل الله تعالى : « ما كان
لنبي حتى يكون له اسرى » الآية . مركز تحقيق كامپيوتر علوم إسلامي
فقد بان لك ان الرأي يخطىء ويصيب ، ولا يعطي اليقين ، وانما الحجة
الطاعة لله ولرسوله ، وما اجمعت عليه الامة من كتاب الله ، وسنة نبينا ، ونحن
لم نترك النبي ، ولا احداً من اصحابه الذين اختلفت الامة في حقهم ، فنعلم
ايهم اولى ، ونكون معهم كما قال تعالى : وكونوا مع الصادقين ونعلم ايهم على
الباطل فنجتنبهم ، وكما قال تعالى : والله اخرجكم من بطون امماتكم لاتعلمون
شيئاً . حتى ادركنا العلم فطلبنا معرفة الدين واهله ، واهل الصدق ، والحق ،
فوجدنا الناس مختلفين يبرأ بعضهم من بعض ، ويجمعهم في حال اختلافهم فريقان :
احدهما قالوا ان النبي صلى الله عليه وآله ، مات ولم يستخلف احداً ، وجعل
ذلك الى المسلمين يختارونهم ، فاختاروا ابا بكر . والآخرون قالوا : ان النبي
صلى الله عليه وآله ، استخلف علياً فجعله اماماً للمسلمين بعده . وادهى كل فريق
منهم الحق .

فلما رأينا ذلك ، وقفنا الفريقين لنبحث ونعلم المحق من المبطل ، فسألناهم
جميعاً : هل للناس بد من وال يقيم اعيادهم ، ويحيي زكواتهم . ويفرقها على
مستحقها ، ويقضي بينهم ، يأخذ لضعيفهم من قوتهم ، ويقوم حدودهم ،

فقالوا لا بد من ذلك . فقلنا : هل لاحد ان يختار احداً فيولي به غير نظر في كتاب الله ، وسنة نبيه صلعم ؟ فقالوا : لا يجوز ذلك إلا بالنظر . فسألناهم جميعاً عن الاسلام الذي امر الله به . فقالوا : انه الشهادتان ، والاقرار بما جاء من عند الله ، والصلوة ، والصوم ، والحج بشرط الاستطاعة ، والعمل بالقرآن يحل حلاله ويحرم حرامه . فقلنا ذلك منهم لاجماعهم . ثم سألناهم جميعاً : هل لله خيرة من خلقه اصطفاهم واختارهم ؟ فقالوا نعم . فقلنا : ما برهانكم ؟ فقالوا : قوله تعالى : وربك يخلق ما يشاء . ويختار ما كان لهم الخيرة من امرهم . فسألناهم من الخيرة ؟ فقالوا : هم المتقون . قلنا ما برهانكم ؟ قالوا : قوله تعالى . ان اكرمكم عند الله اتقاكم . فقلنا هل لله خيرة من المتقين ؟ قالوا نعم . المجاهدون . بدليل قوله تعالى : فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة . فقلنا : هل لله خيرة من المجاهدين ؟ قالوا جميعاً : نعم السابقون من المهاجرين الى الجهاد . بدليل قوله تعالى : لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل . الآية . فقلنا ذلك منهم لاجماعهم عليه : وعلمنا ان خيرة الله من خلقه : المجاهدون السابقون الى الجهاد . ثم قلنا : هل لله منهم خيرة ؟ قالوا : نعم . قلنا : من هم ؟ قالوا : اكثرهم عناء في الجهاد ، وطعناً وضرباً وقتلاً في سبيل الله ، بدليل قوله تعالى . من يعمل مثقال ذرة خيراً يره وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله . فقلنا ذلك منهم . وعلمنا . وعرفنا ان خيرة الخيرة اكثرهم في الجهاد عناء . وابدلهم لنفسه في طاعة الله . واقتلهم لعدوه . فسألناهم عن هذين الرجلين : علي بن ابي طالب عليه السلام ، وابي بكر ، أيهما كان اكثر عناء في الحرب . واحسن بلاء في سبيل الله ؟ فاجمع الفريقان على امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، انه كان اكثر طعناً ، وضرباً ، واشد قتالاً واذب عن دين الله ورسوله .

فثبت بما ذكرناه من اجماع الفريقين ، ودلالة الكتاب والسنة ، ان علياً عليه السلام افضل . وسألناهم ثانياً عن خيرة من المتقين . فقالوا هم الخاشعون بدليل قوله تعالى : وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل اواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب . وقال تعالى : أعدت للمتقين الذين يخشون ربهم

ثم سألناهم : من هم الخاشون . قالوا : هم العلماء . لقول تعالى : انما يخشى الله من عباده العلماء . ثم سألناهم جميعاً : من اعلم الناس ؟ قالوا اعلمهم بالقول واهداهم الى الحق واحقهم ان يكون متبوعاً ولا يكون تابِعاً ، بدليل قول تعالى : يحكمم بما ذوا عدل منكم . فجعل الحكومة الى اهل العدل . فقبلنا ذلك منهم . ثم سألناهم عن اعلم الناس بالعدل من هو ؟ قالوا : ادلهم عليه . قلنا : فمن ادل الناس عليه ؟ قالوا اهداهم الى الحق . واحقهم ان يكون متبوعاً . ولا يكون تابِعاً . بدليل قول تعالى : أقمن يهدي الى الحق احق ان يتبع . الآية .

فدل كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام . والاجماع ان افضل الامة بعد نبيه امير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام . لانه اذا كان اكثرهم جهاداً . كان اتقاهم . واذا كان اتقاهم كان اخشاهم . واذا كان اخشاهم كان اعلمهم . واذا كان اعلمهم . كان ادل على العدل . واذا كان ادل على العدل . كان اهدى الامة الى الحق . واذا كان اهدى . كان اولى ان يكون متبوعاً . وان يكون حاكماً . لا تابِعاً ولا محكوماً عليه .

واجتمعت الامة بعد نبيه انه خلف كتاب الله تعالى ذكره . وامرهم بالرجوع اليه اذا نابهم امر . والى سنة نبيه صلعم فيتدبرونها ويستنبطون منها ما يزول به الاشتباه . فاذا قرأ قارئهم : وربك يخلق ما يشاء ويختار . فيقال لما ثبتها . ثم يقرأ ان اكرمكم عند الله اتقاكم . وفي قراءة ابن مسعود ان خيركم عند الله اتقاكم . ثم يقرأ وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل اواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب . فدل هذه الآية على ان المتقين هم الخاشون . ثم يقرأ حتى اذا بلغ الى قول تعالى : انما يخشى الله من عباده العلماء . فيقال له : اقرأ حتى تنظر . هل العلماء افضل من غيرهم أم لا ؟ حتى اذا بلغ الى قوله تعالى : يرفع الله الذين آمنوا منكم . والذين اوتوا العلم درجات . قيل قد دلت هذه الآية على ان الله تعالى قد اختار العلماء وفضلهم ورفعهم درجات . وقد اجتمعت الامة على ان العلماء من اصحاب رسول الله صلعم . الذين يؤخذ عنهم العلم . كانوا اربعة : علي بن ابي طالب عليه السلام . وعبد الله بن العباس . وابن مسعود . وزيد بن ثابت رضي الله عنهم .

وقالت طائفة عمر بن الخطاب رضه : فسألنا الأئمة من أولى الناس بالتقديم ،
إذا حضرت الصلوة ؟ فقالوا ان النبي صلعم . قال : يؤم بالقوم اقرأهم ، ثم
اجمعوا ان الأربعة كانوا أقرأ لكتاب الله تعالى من عمر ؛ فسقط عمر . ثم سألنا
الأئمة : أي هؤلاء الأربعة أقرأ لكتاب الله وافقه لدينه ، فاختلفوا ، فوقفناهم
حتى نعلم . ثم سألناهم : أيهم أولى بالامامة ، فاجمعوا على ان النبي صلعم قال :
الأئمة من قريش . فسقط ابن مسعود وزيد بن ثابت ، وبقي علي بن ابي طالب
وابن عباس . فسألنا ايهما أولى بالامامة : فاجمعوا على ان النبي صلى الله عليه
 وآله ، قال : اذا كن عالين فقيهن قريشيين ، فأكبرهما سنًا ، واقدمهما هجرة .
فسقط عبد الله بن العباس ، وبقي امير المؤمنين ، علي بن ابي طالب ، صلوات الله
عليه . فيكون احق بالامامة لما اجمعت عليه الأئمة . ولدلالة الكتاب والسنة عليه .
هذا آخر رسالة ابي عثمان عمر بن بحر الجاحظ . فضل الله الزنجاني

كلمة في هذه الرسالة الجاحظية

نحن لا نستغرب مقالة الجاحظ في تفضيل علي - ع - على غيره من الخلفاء
الراشدين لانه كان يصح عليه قول الشاعر : « واقذف بنفسك حيث ترجو الدرهما »
على ان الذي يقرأ شيئاً من كتابه العثمانية يظهر له تفضيله وتقدمه اسلام أبي بكر
- رض - على اسلام « الامام علي » - ع - ونقضه فضائل علي - ع - واستهوانه
افعاله الاسلام . وقد قال أبو جعفر الاسكافي المعتزلي فيموفي مقالاته بكتابه نقض
العثمانية . اما القول فمممكن والدعوى سهلة سيما على مثل الجاحظ فانه ليس على
لسانه من دينه وعقله رقيب وهو من دعوى الباطل غير بعيد فمعناه نزر وقوله
لفو ومطلبه سجع ، وكلامه لعب ولهو ، يقول الشيء وخلافه ، ويحسن القول
وضده ، ليس له من نفسه واعظ ولا لدعواه حد قائم . وقال : « ان مثل
الجاحظ مع فضله وعلمه لا يخفى كذب هذه الدعوى [هي عدم اعتراف علي لنفسه
بالتقدم في الاسلام] وفسادها ، ولكنه يقول ما يقول تعصباً وحناداً » . وعنه
ابو جعفر - على ما ظهر لنا - « ومعتزلي قد نقض في الكلام وابصر في الاختلاف
وعرف الشبه وموضع الطعن وضروب التأويل قد التمس الحيل في ابطال مناقبه
[أي مناقب علي - ع -] . تأمل مشهور فضائله فمرة يتأولها بما لا يحتمل

ومرة يقصد ان يضع من قدرها بقياس منتقص . وقال : « ينبغي ان ينظر اهل الانصاف هذا الفضل ويقفوا على قول الجاحظ والاصم في نصرة العثمانية واجتهادهما في القصد الى فضائل هذا الرجل وتهجينها ، فمرة يبطلان . منها مرة يتوصلان الى حط قدرها فلينظر في كل باب اعتراضا فيه . أين بلغت حيلتهما وما صنعا في احتياليهما في قصصهما وسجعهما . أليس اذا تأملتها علمت انها الفاظ ملفقة بلا معنى وانها عليها شجار وبلاء . » وقال : « لا اشك ان الباطل خان أبا عثمان ، والخطأ أقمد ، والخذلان أصار ، الى الحيرة ، فما علم وعرف حتى قال ما قال . » وقال ابو جعفر في قول الجاحظ : « هذا هو الكذب الصراح والتحريف والادخال في الرواية ما ليس منها . » وقال : « ان أبا عثمان يجبر على نفسه ما لا طاقة له به من مطاعن الشيعة . » وقال في كلام له : « هذا الكلام وهجر السكران سواء في تقارب المخرج واضطراب المعنى . » وقال : « نعجب من منذهب ابي عثمان ، ان المعارف ضرورية وانها تصح طباطبا ، وفي قوله بالتولد وحركة الحجر بالطبع حتى رأينا من قوله ما هو اعجب منه . فزعم انه ربما يكون جهاد علي - ع - وقتل المشركين لا ثواب فيه لانه فعله طبعاً . وهذا أطرف من قوله في المعرفة وفي التولد . » وقال : « لقد اعطي ابو عثمان مقولا وحرم معقولا ان كان يقول هذا على اعتقاد وجد ، ولم ينذهب به منذهب اللعب والهزل أو على طريق التفاسيح والتشادق واظهار القوة والسلطة وذلاقة اللسان وحدة الخاطر والقوة على جدال الخصوم (١) . » قلنا : وقد بلي الجاحظ من ابي جعفر الامسكافي بحجيج ذي مرة وحجيج راسية .

مصطفى جواد

(١) شرح ابن ابي الحديد « مج ٣ ص ٢٥٤ و ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٦٧ و ٢٦٨ و ٢٧٠

و ٢٧١ و ٢٧٢ و ٢٧٥ و ٢٧٦ و ٢٧٩ .